



بعد مخاض عسير وطويل، والأصح بعد جدال رتيب وممل رفع الستار عن مصير حكومة "الحبيب الجملي". وكما كان متوقعا فورَ خروج النتائج النهائية للانتخابات البرلمانية والتي أفرزت خليطا هجيناً لا يمكن أن ينتج عنه تشكيل أية حكومة بسبب حالة التشتت والتشرذم التي اتصف بها البرلمان الجديد، والمقصود بالتشرذم والتشتت هنا هو تعدد الولاءات وتنوع الأجنداث وعدم مسك دفة التسيير وأخذ القرارات من طرف مسؤول كبير واحد. فتفرق المطامع بين المسؤولين الكبار كان حتماً سيعرقل ميلاد حكومة يكون حولها إجماع ولهذا لم تحظى حكومة "الحبيب الجملي" بثقة أعضاء مجلس نواب الشعب. وكما كان منتظراً تأجل الحسم في أمر الحكومة إلى جولة أخرى، فالمعركة لم تنتهي بعد، وقد استعد لها الجميع كما يجب، رغم أنها لم تشهد دخول أسلحة جديدة، فالأسلحة المستعملة في هكذا معارك معتادة ولم تتغير منذ ستة عقود، وهي خدمة مصالح أي مسؤول كبير كان مع اللهث وراء ما يوجد به من فتات مع ترك هامش ضيق لتصرف الذاتي لا يمس من مصالح القوى الفاعلة الحقيقية في تشكيل المشهد وأخذ القرار.

إذن، سقطت حكومة "الحبيب الجملي" وكانت الغلبة لأنصار ما يسمونها بحكومة الرئيس ومعناها أن الرئيس "قيس سعيد" سيكلف شخصية أخرى تتكفل بتشكيل حكومة جديدة ثم تعرض على أعضاء مجلس الشعب لنيل ثقتهم أو تسقط كما سقطت الحكومة التي قيل أنها مستقلة وتعيّج بالكفاءات التي لم يجد الزمان بمثلاها، وكما أقسم رئيس الحكومة المكلف "الحبيب الجملي" بأغلظ الأيمان بأن حكومته تنبض بالكفاءة وتتنفس الاستقلالية عن الأحزاب ولم يصدّقه أحد إلا الذين احتموا بذات المسؤول الكبير الذي احتمى به هو. سيجد من يكلفه الرئيس "قيس سعيد" نفسه مجبراً على الاجتهاد في القسم على أن حكومته حكومة كفاءات وخبرات، وأن أعضاؤها لا يشق لهم غبار في مجال السياسة والاقتصاد، ولا يمكن لأحد أن يضاهيهم في حب تونس، ولا يمكن مجاراتهم في السهر والكد والجد من أجل مصلحة البلاد وأهلها. وسوف لن يصدقه أحد إلا الذين هم يدينون بالولاء لنفس المسؤول الكبير الذي خسر معركة منح الثقة لحكومة "الحبيب الجملي" فالثقب الذي ابتلع هذه الحكومة هو ذاته الذي كانت ستمر من خلاله، وهو الثقب ذاته الذي مرت منه الحكومات السابقة. كما أنه ابتلع أخرى ولم تقوى على الصمود، كحكومة "حمادي الجبالي" أو حكومة "علي لعريض" أو "الحبيب الصيد" رغم أن هذه الحكومات جميعها كان مرورها من خلال هذا الثقب. فالثقب ثابت لا يتغير ولكن المرور من عدمه متوقف على المسؤول القائم عليه. فمن يمر اليوم قد يجد الصد غداً، ومن يبتلعه الثقب اليوم قد يجد الطريق سالكة في قادم الأيام، وهكذا دواليك حركة متغيرة لا تستقر على حال رغم أن الثقب ثابت لا يطرأ عليه أي تغيير.

ولمعرفة هذا الثقب يكفي الاطلاع على ما دار في الجلسة العامة الأخيرة لمجلس نواب الشعب والتي خصصت لمنح الثقة للحكومة الجديدة حيث شهدنا تخاصم أهل البرلمان ورأينا كيف انخرط الجميع في موجة عارمة من الشتم والثلب. فكل كتلة تلعن أختها وكل نائب يصف من يخالفه بالعمالة



والارتهان لجهات أجنبية. ثم ترد الجهة المقابلة الفعل وتعكس الهجوم. الكل يطعن في إخلاص الكل، والكل يتهم الكل بخدمة المصالح الشخصية واللّهث وراء المكاسب والمغانم على حساب مصلحة البلاد والعباد. والحقيقة أن كل ما سمعناه هو من قبيل الحق الذي أريد به باطل، وكل التهم الموجهة لهذا الطرف أو ذاك صحيحة وليس هناك أدنى شك في أن تخاصم أهل البرلمان يشبه إلى حد كبير تخاصم أهل النار، حيث لا يوجد شخص يحب الآخر رغم أن جميعهم يأتون الآثام نفسها ويتبعون الخطى ذاتها وهي خطى المستعمر، يتبنون أفكاره ويحملون مفاهيمه ويلتقون كلهم في نفس الجب الذي غرّهم من قبل فدخلوه خائعين خاضعين ثم سجنهم وسط ظلمته وضيقه، وحين فرقتهم الأطماع والمآرب تخاصموا وتشاكسوا، رغم أن جميعهم سخرّ نفسه وحزبه وكتلته لخدمة المسؤول الكبير. وكم تمنوا لو كانت له جنسية واحدة حتى لا تتفرق الجهود وتتفرقها يمكن أن تتضاءل وتتقلص الغنائم. فالمسؤول الكبير موجود في أكثر من قوة استعمارية وهذه القوى غير متكافئة من حيث النفوذ ومدى سيطرتها على غيرها من الدول المتخلفة مثل الدولة التي ابتلينا بها هنا في تونس. وكما هو حال سائر بلاد المسلمين.

لذا فالقبول بولوج ذلك الثقب قد لا يكفي، فالمرور والاستمرار، والبقاء على الساحة متوقّف على مدى قوة المسؤول الكبير ومدى نفوذه، وهذا الذي حصل مع حكومة "الحبيب الجملي" وابتلعها الثقب الذي كانت ستتمر منه، فالأتباع والمتبعون كثر مما شتت الجهود لكثرة المسؤولين الكبار وتعدد الأجنداث، فكان السقوط أمرا محتوما في انتظار حكومة أخرى قد تمر وقد يبتلعها الثقب هي أيضا. وسواء مرت أو تلاشت فالأمر سيان، ما دام الثقب الأكبر لم يتم ردمه وطمسه نهائيا وجذريا ستستمر هذه العناصر الصارة تتناحر على ولوجه، ولنا في إفرافات الانتخابات الأخيرة والتي سبقتها خير مثال. نعم مادام هذا النظام الديمقراطي الوضعي جاثما على صدورنا لن يكون حصادنا غير الخسران ولا شيء سواه..

## حسن نوير

مشاركة

